دلالة الضّمّة في القرآن الكريم: دراسة وصفية تحليلية

تلار سالار أحمد*

صالح محجوب محمّد التّنقاري**

ملخص البحث:

سعى هذا البحث من خلال المنهج الوصفي الاستقرائي إلى الوقوف على دلالة الضمة في القرآن الكريم، وقد توصل الباحثان إلى أنّ الضّمة بنوعيها الطويلة والقصيرة تخرج من أقصى الحنك، والأصوات الخارجة من أقصى الحنك تحتاج إلى جُهدٍ كبير لدفعها والنطق بها، وهذا مما أعطى الضّمّة القوّة والشدّة، وربما يكون هذا هو السبب في كثرة استعماله عزّ وجلّ لهذا الصوت في مواقف الوعد والوعيد في القرآن الكريم. ونلاحظ أنّ القرآن الكريم في موقف السخط والغضب، أو عند تشريع حكم قاسٍ بوصفه عقوبة، أو في الأوامر والنواهي يُكثر من استعمال الضمّة (بنوعيها)؛ وذلك لأنّ الفتحة تدلّ على انشراح الصدر والفرح، بعكس الضمة التي تدلّ على الانغلاق والانقباض، وضيق الصدر والانفعال، وهي كأنّها صخرةٌ قد وقعت على جسمٍ نحيف من مكانٍ عالٍ فأصابته بالألم والعذاب. وقد توصل البحث إلى أنّ الضّمة من خصائصها إزالة الشّك، والتنفيس، والتعبير عن الشّدّة والقوّة، فوجودها دليل على قوّة الصوت، والصِّيغة، وتأتي على مستوى التركيب مقرونة بالإسناد.

الكلمات المفتاحية: الدلالة- الضّمّة- الفونيم- الصّوائت- التركيب.

---

[*] كلية التربية، قسم اللغة العربية وآدابها، الجامعة السليمانية، العراق.

[**] نائب العميد لشؤون الطلبة بمركز اللغات والتنمية العلمية للإعداد الجامعي، الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا.

Abstract:
The paper attempts to investigate the meaning of the dhammah vowel in the Holy Quran through a deductive descriptive method. The researchers had managed to conclude that this particular vowel mark with both its types: long and short comes from the extreme palate. Sounds which originate from this particular place normally need a particular effort to push it out to be articulated. This has resulted in a strong and firm sound; a character that is perhaps the reason of its usage in most of the Quranic verses which contain the message of warning and promises. It is observed as well that it's presence is more noticeable in the verses which contain resentment and anger or in ordaining a certain harsh judgment or punishment. It is also present in verses containing instructions and prohibitions with both its types. The reason behind this is that the other vowel such as the fathah normally indicate joy and relaxation unlike the dhammah which indicates retraction, constriction, restlessness and emotion. It is like the sound of a rock smashing on a small body from a high place resulting in pain and torture. The study concluded that among the characteristics of the dhammah is to cast out doubt, to relief and express firmness and strength. Its presence indicates the strength in voice and expression. It also normally comes in a phrase form attached to a noun.

Key words: Meaning – Dhommah – Phoneme – Vowels – Phrase

Abstrak:
Kertas ini bertujuan menyingkap makna baris depan (dhammah) dalam Al-Quran melalui satu kaedah kajian secara deskriptif dan deduktif. Penyelidik-penyelidik telah menyimpulkan yang bunyi vowel yang terdiri dari dua jenisnya: panjang dan pendek bermula daripada kawasan lelangit yang paling hujung. Bunyi yang berasal dari tempat ini biasanya memerlukan usaha tertentu untuk menolaknya keluar untuk disuarakan. Ini telah menghasilkan satu bunyi kuat dan kukuh; satu ciri yang mungkin juga adalah sebab dalam penggunaannya di kebanyakan ayat-ayat AL-Quran yang mengandungi mesej amaran dan janji-janji Tuhan. Juga diperhatikan bahawa vowel ini mempunyai kehadiran lebih ketara dalam ayat-ayat yang mengandungi kemarahan dan amaran atau dalam mentahbiskan satu hukuman. Ia juga hadir dalam ayat-ayat yang mengandungi arahan-arahan dan larangan-larangan. Ini adalah kerana vokal yang lain seperti baris atas biasanya menunjukkan kegembiraan dan kelapangan pemikiran tidak seperti dhammah yang menunjukkan keresahan dan emosi. Kajian ini menyimpulkan di antara ciri-ciri dhammah ialah untuk menghilangkan keraguan, untuk menyatakan ketegasan dan ketegasan.. Ia juga biasanya masuk di dalam frasa dan terdapat pada kata nama.

Kata kunci : Makna – Dhommah – Fonim – Vowel - Frasa

مُقدّمة:

الحروف والكلمات هي من الوسائل المتميزة التي تستعمل لغرض التواصل، وبذلك يُعَبَّرُ عبرها عن الظمأ والجوع، والخطر والحبّ وصرخات الغضب والتهديد وغيرها. وكلُّ صوتٍ يتصف بعدة خصائص تميّزه عن باقي الأصوات وتعطي له الخاصية الصوتية، بحيث تدلّ على معنىً معيّن دون غيره؛ ولكن حدّة الصوت وخشونته وطوله وقوّته، وطريقة نطقه وإدراكه تختلف باختلاف الزّمان والمكان والأحداث والشّخصيات. والضّمة هي إحدى تلك الأصوات التي لها صفة خاصّة بحيث تجعلها مختلفة عن باقي الأصوات من حيث صفاتها. والبحث يريد أن يبيّن نسبة صحة هذا الكلام على الضّمّة بنوعيها (الطويلة والقصيرة) من منظارٍ قرآني عبر اتباع المنهج الوصفي الاستقرائي، والإتيان بالشواهد القرآنية لكلّ ظاهرة لُغوية، وللإجابة عن أسئلة البحث الآتية: هل الضّمة صوت قويّ؟ وما مدى كثرة استعمال القرآن للضّمّة في موقف الغضب والسخط أو الوعيد؟ ولماذا تدلّ الضّمة على الشدة؟

التركيب البنيوي للمفردة العربية:

تتكون المفردة العربية من عدد من الفونيمات وكلّ فونيم يؤدي دوره بشكل أو بآخر بحيث أي تبديل فونيم يولد دلالة مختلفة. وعُرِّف الفونيم بأنّه (كلُّ صوت قادر على إيجاد تغيّر دلالي).[١]

وتتميز الفونيمات الثلاثة بالاستقلالية، والقدرة على حفظ التباين الدلالي داخل التراكيب وحفظ درجات الترتيب النطقي على وفق ما يقتضيه القانون الصرفي.[٢] أما الفونيمات أو المصوتات الثلاثة الطويلة[٣] فهي (الألف، والواو المديّة، والياء المديّة) فقد وصفتْ بطريقتين:[٤]

١. طريق البناء العروضي: حيث ظهرت في تفصيلاته مشَكّلة بالسكون؛ لأن العروض العربي بُنِيَ على أساس الساكن والمتحرك، وظهرت في (فَاْعِلُنْ)

و(فَعُوْلُنْ) مشكلة بالسكون،[٥] وهي في حقيقتها البنائية حركات مكثفة (مصوتات)، والحركة لا يمكن أن توصف بالسكون.

٢. طريقة الحروف المعتلة، وهي في حقيقتها أصواتٌ نشطة.

ويُلاحظ أنّ بنية الكلمة تتكون من عنصر ثابت وآخر متغيّر، فأما الثابت فهو مجموعة الصوامت التي تؤلف هيكل الكلمة، وأما المتغيّر فهو مجموعة الحركات التي تحدد صيغتها، وتمنحها معناها (وبذلك تزاد في نظرنا قيمة الحركات باعتبارها العامل الحاسم في خلق الكلمة العربية).[٦]

وظيفة الضمّة في التركيب النحوي:

لكلٍّ من الضمّة والواو وظائف عدّة خاصّة بهما، فمثلاً اللغويون فرّقوا بين الوحدات الصرفية (الكمّي)، كما هو الحال عند التفرقة بين اسم الفاعل واسم المفعول عن طريق الفتحة، كما في جملة: (الرجلُ ذهبَ). والنحاة البصريون يعدّون الفاعل ضميرا مستترا تقديره هو يعود على الرجل، للحفاظ على القاعدة التي تنصّ على أنْ يلي الفاعلُ الفعلَ؛ على الرغم من عدم وجود مانع لغوي من تقديم أو وقوع الفاعل قبل الفعل.

والمعلوم إنّ الفاعل مرفوع _أي مضموم_ وهذا مما يعطي الواو والضّمة صفة العمديّة (عُمدة) في الكلام بحيث لا يمكن الاستغناء عنهما، وهما ليستا من الفضليات، أو ما يسمى بالتخصيص كالمفعول به ومتعلقاته، حيث تكون حركاتها إما الفتحة أو الكسرة.

وقولهم إن الأصل في (مررتُ بزيدٍ الفاضلُ) بضمّ اللام في (الفاضلُ) هو (مررتُ بزيدٍ هو الفاضلُ)؛ لأنَّ (الفاضلُ) لم ترد بالكسر كما تقتضي القاعدة النحوية،[٧] فأصبح الوضع في حاجة إلى تقديرٍ.

والحالة نفسها تكرّرت في جملة: (اذهبْ إلى البيتِ) يكون تقدير (أنت) ضروريّاً؛ لأنَّ التركيب النحوي يقتضي ذلك، فلا تستقيم الجملة بدونه.

أمّا الضّمة الطويلة أو ما يُسمَّى بالواو فيمكنه التعبير عن الإسناد؛ إذا كان المسند إليه واحداً من الاسماء الخمسة،[٨] مثل: (جاءَ أبوك) و (أبوك مقاتلٌ). يتَّضح مما تقدَّم أنّ الفاعل إما أنْ يكون مرفوعاً بالضمة، أو الواو، أو الألف سواء أكان (مفرداً، أو اسماً من الأسماء الخمسة، أم جمعَ مذكر سالم، أم مثنىً على الترتيب).

وهناك من الاستعمالات أو من المباني في اللغة العربية ما لا يُفرق بين معانيها إلا بالحركات الإعرابية (لو أنّ قائلاً قال: هذا قاتلٌ أخي بالتنوين دلّ على أنّه لم يقتله، ودلّ حذف التنوين على أنّه قد قتلهُ).[٩]

وظيفة الضَّمّة في البنية المفردة:

وتأثير الفونيمات أو المصوتات القصيرة والطويلة هو تأثيرٌ جلي من الناحية الصرفية والدلالية على الكلمات بحيث يمكن أن تعطي لكلمة معينة ثلاثة أوجه من الفعل، والوصف، والاسم مثل (الحُزن، الحَزن، والحزين).

ومعاني الضمة (بنوعيها القصيرة والطويلة) متعددة؛ منها أنّها تفرق بين اسم الفاعل واسم المفعول، فلذلك لها القدرة على تغيير شكل الوحدات الصرفية من الناحية الكمية.[١٠]

ومن المعاني الأخرى للواو هي أَنَّها تدلّ على القوة كالقسم، ولا تدخل واو القسم إلا على الظاهر، ولا تتعلق إلا بمحذوف.[١١] كقوله تعالى: ﴿ يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ﴾،[١٢] وقد تزاد الواو بعد (إلا) لتأكيد الحكم، وهذا يدلّ على عظمة وقوتها، كقولنا:[١٣] (ما من أحدٍ إلا وله طمع أو حسد).

وفي قوله عزّ وجلّ: ﴿ سَيَقُولُونَ ثَلَٰثَةٞ رَّابِعُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ وَيَقُولُونَ خَمۡسَةٞ سَادِسُهُمۡ كَلۡبُهُمۡ رَجۡمَۢا بِٱلۡغَيۡبِۖ وَيَقُولُونَ سَبۡعَةٞ وَثَامِنُهُمۡ كَلۡبُهُمۡۚ قُل رَّبِّيٓ أَعۡلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعۡلَمُهُمۡ إِلَّا قَلِيلٞ ﴾،[١٤] نرى أنّ الله ذكر بعد (ثلاثة) مباشرة (رابعهم)، وأيضاً عندما ذكر (خمسة) وأتى بعده (سادسهم) دون فاصل؛ ولكن عندما قال: (سبعة) أتي بعده الواو ثم (ثامنهم) وفي هذا إشارة إلى أنّ الذي يقع بعد الواو هو الصحيح، فلذلك أوتي بالواو لإثبات شيء فيه نوع من الشّكِّ، والإبهام، والغموض.

وقال تعالى: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا ﴾،[١٥] ذكر الله الكافرين الذين يدخلون النار بدون الواو؛ لأنّ أبواب جهنم لا تُفتح إلا عند دخول أهلها فيها، وطردهم إليها بالهوان والعنف كما يفعل بالأسارى والخارجين على السلطان،[١٦] في حين أنه بعد ذلك أشار إلى المؤمنين الذين يدخلون الجنة في السورة نفسها ومباشرة وعلى الصيغة نفسها ولكن بذكره الواو: ﴿ وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوۡاْ رَبَّهُمۡ إِلَى ٱلۡجَنَّةِ زُمَرًاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا وَفُتِحَتۡ أَبۡوَٰبُهَا ﴾.[١٧] فالفرق الذي أحدثته الواو هو أن أبواب جهنم تُفتح مباشرة بوجوه الكافرين؛ لكي يرعبوا كثيراً، أو مثل ما تكون مفاجأة مُرَّةً بأقصى درجاتها من شدة الهول والعذاب، بينما المؤمنون عند دخولهم كقوله تعالى: (وَفُتحت) باستعمال الواو يدخلون الجنة لكي يشار إلى أن أبواب الجنة تفتح بكلِّ هدوء شيئاً فشيئاً حتى لا يندهش المؤمن، ويُصاب بصدمة من جمال ما ستقع عليه عينه من مناظر الجنّة ونعيمها، فهذا يدلّ على أن الواو تدلّ على التنفيس. كما قيل: (في الشيء الحلو: حلا في فمّي، يحلو وحَكيَ في عيني. فجعلوا باء فعل لما يذاق لحاسة الذّوق كي تظهر الواو، وهو قويّ، وبناء فعل بالكسر لما كان لغير تلك الحاسة كي تظهر الياء، وهي أضعف من الواو).[١٨]

دلالة الضّمّة:

يرى ابن جنّي(ت ٣٩٢هـ) أن الفتحة والسكون أخفّ من الضمة والكسر، فالفتحة عنده تُشابه السكون في عدّة مواضع، منها: إنَّ كلَّ واحد منهما يهرب إليه مما هو أثقل منه، كما يُقال في جمع فِعْلة وفُعْلة (فَعُلات) بضمّ العين، نحو غرُفات، و(فَعِلات) بكسرها، نحو كَسِرات، ثم يستثقل توالي الضمتين والكسرتين، فيهرب عنهما تارة إلى الفتح فتقول: غرُفَات، وكَسَرات، وهكذا تراهم قد سوّوا بين الفتحة والسكون في العدول عن الضمة، والكسرة إليهما.[١٩]

والضمة إن كانت أثقل من الكسرة؛ فإنها أقوى منها، أي أنّها تحتمل الثبوت على الحرف أكثر من الكسرة، وعلى هذا كثرت الفتحة في أبنية الألفاظ والتراكيب.

وقال ابن جنّي: إنك لا تجد في الثنائي على قلّة حروفه ما أوّله مضموم، إلا قليلاً[٢٠] فإما ما أوله مفتوحاً، نحو (هَلْ، بَلْ، قَدْ، أَنْ، عَنْ، كَمْ، ومَنْ)، وفي المعتل (أَو، لَوْ، كَيْ، وأَيْ)، أو مكسوراً، نحو (إِنْ، مِنْ، وإِذْ)، وفي المعتل (أي، فِي، وهِي)، والضّمّ قليل في الثنائي، نحو: (هُو)، وأما (هُما) فمحذوفة من (همو)، كما إن (مُذْ) محذوفة من (مُنذُ). كذلك جميع ما جاء على حرف واحد يبنى على الفتح إلا الأقلّ وذلك نحو: (الهمزة، والاستفهام، وواو العطف وفائه، ولام الابتداء، وكاف التشبيه) وغير ذلك، وقليل منه مكسور كـــ (يا الإضافة ولامها ولام الأمر)، ولا نجد في الحروف المنفردة ذوات المعاني ما جاء مضموماً، وذلك هرباً من ثقل الضمة.[٢١] وعلى هذا الأساس فالفتحة هي أخفُّ الحركات جرساً وأنّها فُضّلت على غيرها من الحركات. والعرب تهرب من الضمة والكسرة لثقلهما، وأجمعوا على الفتحة في غالب الأمر لخفتها. وذهب ابن الأثير(ت ٦٣٧هـــ) إلى القول: (استُثْقِلت الضمّة على الواو، والكسرة على الياء؛ لأن الضمّة من جنس الواو، والكسرة من جنس الياء، فتكون عند ذلك كأنهما حركتان ثقيلتان) .[٢٢]

وقد توالت حركة الضم في بعض الألفاظ و لم يحدث فيها كراهية ولا ثقل، كقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَنذَرَهُم بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْاْ بِٱلنُّذُرِ ﴾ ،[٢٣] وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلْمُجْرِمِينَ فِى ضَلَـٰلٍ وَسُعُرٍ ﴾،[٢٤] وقوله عزّ وجلّ: ﴿ وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ ﴾[٢٥] في السورة نفسها، فحركة الضمة في هذه الألفاظ متوالية وليس بها ثقل، ولا كراهة مثل: (سُعُر، وزُبُر، و نُذُر). ولو بدلنا حركة أي لفظة لشعر شاعر ما لاختلفت قيمتها السمعية، وإنّ أي تغير في الحركة يحدث نشازاً في توافق النغمة الموسيقية للسياق المنظوم فيه، فتوالي ثلاث فتحات أخفّ من حصول الضّمّ في وسطه؛ فمثلاً (فَرَس) أخف من (عَضُد). فلو ركزنا على كلمة (طيف)، فاللفظة لم تستعمل إلا مفردة عند القدماء والمحدثين؛ لأن جمعها (طُيوف) وهي من أقبح الألفاظ وأشدّها كراهةً في السمع؛ وذلك لأن (الواو) في طيوف ثقيلة، فضلاً عن عدم انسجامها مع الياء. وقد ذهب ابن الأثير إلى جمع آخر لـــ (طيف) وهو (أطياف)، فرأى أنّه أخفّ منها، وأحلى ملفوظة ومسموعة.[٢٦]

وقد جُعل الصوت الأقوى للفعل الأقوى، والصوت الأضعف للفعل الأضعف وقوة الصوت تزيد في قوة معناه. فوزْن (فَعُلَ) و(افْعوعَل) مثل خَشُن واخشوشن؛ فمعنى (اخشوشن) أقوى من (خَشُن) لتكرار عين الفعل الذي هو (الشين) وزيادة الواو، والحالة نفسها للعشب واعشوشب.[٢٧]

قال تعالى: ﴿ وَٱخۡفِضۡ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحۡمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرۡحَمۡهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرٗا ﴾[٢٨] الذال واللام مشددتان للتعبير عن وصف في الإنسان والدابة، فكسروا الذال للدابة؛ إذا أرادوا به ضدّ الصعوبة، فقالوا: (ذِلّ)، وضمّوا الذال للانسان إذا أرادوا ضد العزّ، فقالوا : ذُلّ ولا شك في أن الذي ينال الانسان من الذلّ أكبر خطراً وأشد وقعاً وتأثيراً مما تناله الدّابة،[٢٩] فـــ (اختاروا الضمة لقوتها للانسان، والكسرة لضعفها للدّابّة).[٣٠]

فلو تأملنا قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ أَنذَرَهُم بَطۡشَتَنَا فَتَمَارَوۡاْ بِٱلنُّذُرِ ﴾[٣١] نحسّ بحلاوة مواقع الحروف والحركات في السمع، وكيف أنَّ لفظ (بطشَتَنَا) جاء بحركات الفتح المتوالية، ثم انتقاله إلى (واو) في (تماروا) مع الفصل بالمدّ، كأنها تثقيل لخفة التتابع في الفتحات، إذا هي جرت على اللسان؛ ليكون ثقل الضمة عليه مستخفّاً؛ لكون هذه الضمة قد أصابت موضعها كما تكون الأحماض في الأطعمة، وكيف أن (النُّذُر) أتت ضمته ثقيلة فيها لتواليها على النون والذال معاً.[٣٢]

وأصوات اللين الطويلة قد يزداد طولها ضعفاً أو ضعفين، حين يليها همزة أو صوت مدغم سواء أكان هذا في كلمة واحدة وهو ما اصطلح القدماء على تسميته المتصل، أو في كلمتين وهو المدّ المنفصل.[٣٣] والسبب لهذه الإطالة لكي لا يتأثر بمجاورة الهمزة أو الإدغام، كقوله تعالى: ﴿كَأَنَّهُمۡ يَوۡمَ يَرَوۡنَهَا لَمۡ يَلۡبَثُوٓاْ إِلَّا عَشِيَّةً أَوۡ ضُحَىٰهَا ﴾؛[٣٤] وذلك لأن الجمع بين صوت اللين والهمزة كالجمع بين متناقضين، وبالإمكان الدلالة على الضمّة بحركة الشفتين دون النطق به، وذلك باستدارة الشفتين في آخر الكلمة كقوله تعالى: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلۡتَ إِلَيَّ مِنۡ خَيۡرٖ فَقِيرٞ ﴾.[٣٥]

وتُوصف الضّمّة بصفة الإسناد، أي المسند والمسند إليه وبالأخصّ المسند إليه حيث يكون مرفوعاً دائماً والرفع يعني الضم والمسند إليه، ولا يمكن الاستغناء عنه. والخبر والفعل

مسندان، والمبتدأ والفاعل هما المسند إليهما. فالفعل يجب أن يكون له فاعل، ولو كان مبنياً للمجهول فيجب أن يكون هناك شيء يحلّ محلّ الفاعل ويعرب بالرفع أيضاً.

والحقيقة أن الصفة الغالبة للضمّة في القرآن الكريم هي صفة القوة، والغضب، والشّدّة. يقول عزّ وجلّ: ﴿وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡ وَأَخۡرِجُوهُم مِّنۡ حَيۡثُ أَخۡرَجُوكُمۡۚ وَٱلۡفِتۡنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلۡقَتۡلِۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمۡ عِندَ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِيهِۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمۡ فَٱقۡتُلُوهُمۡۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾[٣٦] نلحظ شدّة غضب الله من حيث مخاطبته المسلمين، وكيف يأمرهم بقتل الكفّار، فعبّر عن سخطه وغضبه باستعمال صوت الواو؛ لأنّه صوتٌ مجهور، وقوي يناسب ذلك المقام. وقوله تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلۡجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِي سِلۡسِلَةٖ ذَرۡعُهَا سَبۡعُونَ ذِرَاعٗا فَٱسۡلُكُوهُ﴾[٣٧] نرى أنّ الله عزّ وجلّ تحدّثَ عن الكفّار وأهل الجحيم والسعير ، فمن شدّة غضبه فإنّ المشهد يتراءى أمامنا، ونتخيل هذه الصورة المزرية والمخزية والمروّعة. فالله تعالى يرفع صوته ويأمر الملائكة بشدة لأخذ الكفّار وجرّهم إلى الجحيم، فكلّ إنسانٍ واعٍ يمكن أنْ يستنتج ذلك من خلال الكلمات والأصوات المستعملة في هذا المقام، ومن ثمّ يؤدي إلى ترهيبه من غضب الله ووعيده وعقابه وكيف استنتجنا ذلك ؟ استنتجناه من خلال استعمال الواو بكثرة، في حين حديثه عن أهل الجنة استعمل الكلمات الراقية و حركة الفتحة أكثر من الضّمّة؛ لكي تدلّ على الطمأنينة والسلام.

المستوى الصوتي لدلالة الضّمّة:

مما لا شك فيه أن اللغات وبشكل أخص اللهجات عادة تميل إلى الانسجام بين الأصوات كي لا يثقل عليها الانتقال من موضع إلى آخر بعيد.[٣٨] واللسان عادة يميل إلى الخفة حين النطق بالمصوتات، وذلك لأن (رفع اللسان من موضع واحدٍ أخفُّ عليهم).[٣٩] فإذا وجد اللسان صعوبة في الانتقال من حركة ثقيلة إلى خفيفة مال إلى قلب الثقيلة إلى حركة تماثل الخفيفة. ويقول سيبويه: (إنّ الرّغبة في الانتقال من حركةٍ خفيفة إلى حركةٍ تماثل الخفيفة هي السبب في الإعلال).[٤٠]

قال تعالى: ﴿ وَوَٰعَدۡنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيۡلَةٗ وَأَتۡمَمۡنَٰهَا بِعَشۡرٖ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرۡبَعِينَ لَيۡلَةٗ ﴾[٤١]
وقوله جلّ وعلا: ﴿ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴾.[٤٢]
فأصل كلمة (ميقات) هو (مِوْقات) أي /م ـــِ و،ق ـــً ، ت ـــِ /، وإنما قلبت الواو ياءً ، لأن اللسان يرتفع من موضع واحد فاصبحت (مِيْقات)، وتقطيعه أصبح /م ـــٍ ،ق ـــً ، ت ـــِ /، أي (إذا وقعت الواو متوسطة أثر كسرة، وهي ساكنة مفردة قلبت ياءً).[٤٣]
والحالة نفسها تنطبق على الميعاد والميزان. فقد حوّلا عن مِوْعاد و مِوْزان وقد قُلبت فيهما الواو ياءً لمجانستها للكسرة التي سبقتها، وبذلك (أبدلوا (الياء) لاستثقالهم هذه (الواو) بعد الكسرة).[٤٤]

وكلمة (سيّد) أصلها (سَيْوِد)، ولكن تتابع صوتين مزدوجين في (سَيْوِد) يشبه تتابع الكسرة والضّمّة، ونظراً لصعوبة هذا التركيب، وكراهية اللغة له، فإنها حاولت الانسجام في هذا المثال وأشباهه، وذلك بتغلب عنصر الكسرة على الضّمّة.[٤٥]

وتقلب الواو ألفاً إذا حُركت الواو وانفتح ما قبلها مماثلة للفتحة، وذلك نحو (قامَ) و (خافَ)، قال سيبويه: (إذا كانت الياء والواو قبلهما فتحة، اعتلّت وقلبت ألفاً كما اعتلت وقبلها الضم والكسر).[٤٦] وكلمة (بِيْض) التي هي جمع (بَيْضاء) فأصلها (بُيْض) على وزن (فُعْــل)، ولكن الانتقال من الضمة إلى الياء ثقيل على اللسان؛ لذلك تُكْسر فاء الكلمة لمناسبة الياء.[٤٧]

ويرى سيبويه أن تتابع الضّمتين أيضاً مكروه مثل تتابع الواوين؛ وذلك لأنّ الضّمّة من الواو؛ لذا يخففون إحدى الضّمتين،[٤٨] كما في (الرُّسْل)، فالأصل (الرُّسُل)؛ لأنّ تتابع الضمتين ثقيل على اللسان مما استدعَى تسكين الثاني.

ويمكننا إثبات ثقل الضمة عن طريق مثلث دانيال جونز، حيث حدد صفات كلّ من الفتحة، والكسرة، والضمة:[٤٩]

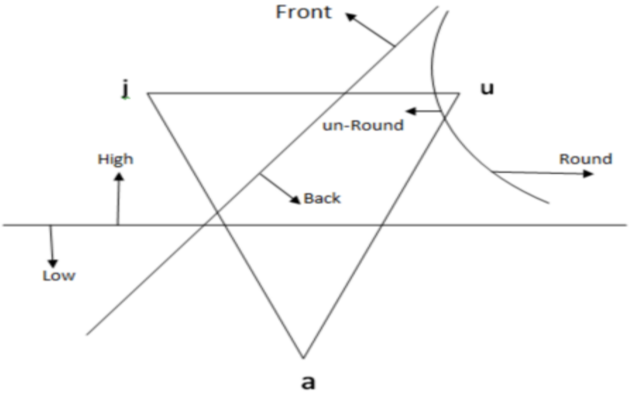

فالفتحة (a) صوت منخفض وخلفي وغير مدور، والكسرة (i) صوت عَالٍ وأمامي وغير مدور، بينما الضمة والتي رُمز إليها ب (u)، وهو صوت عالٍ، وخلفي، ومدوّر حسب مثلث جونز.

فالكسرة صوت أمامي وغير مدوّر ، فهي صوت ثقيل، والفتحة أخفّ الأصوات، والضمة صوت مدوّر، وهي من أثقل الأصوات،[٥٠] ويحصل نتيجة للتخالف الصوتي والإبدال، بمعنى تبادل مواقع أصوات المدّ مع الصوامت في حالة اجتماع أنصاف المدّ (إذ كثيراً ما تجنح العربية في هذه الأحوال إلى أن تقلب أحد الأصوات المتماثلة إلى صوت مغاير غالباً ما يكون الهمزة).[٥١] كما في (سُوُوق) فيقال (سُؤوق)، فإنها تُهمز لكراهية الواوين والضمة في الواو.[٥٢]

تتبين لنا أن موضع نطق الضمة هو أقصى اللسان نحو أقصى الحنك، والواو لها المخرج نفسه، ولكن بزيادة صعود أقصى اللسان نحو أقصى الحنك.

المستوى البنيوي (الصرفي) للضمة:

من المعلوم أن كلّ زيادة في المبنى تؤدي إلى زيادة في المعنى، فالصرف يختص بفاء وعين الفعل بعكس النحو الذي يركز على لام الفعل أي:

ف + ع = الصرف ـــــــــ هذا ثبوت – زمن

ف + ع + ل = النحو ـــــــ هذا تحرك + زمن
فكلّ بنية + زمن = تحوّل وتحرّك = النحو
كلُّ بنية — زمن = ثبوت = الصرف

وصيغة (فَعُول) هي واحدة من صيغ المبالغة، فأصلها (فَعَلَ)، ولكن بزيادة الواو تعطي الصيغة معنى آخر، بحيث تختلف عن المعنى الأوّل، ولأن دلالتها أقوى من الأول. وقد قيل: إنّ (فَعُول) يستعمل لمن كَثُرَ منه الفعل.[٥٣] فــ (الشّكور) يدلّ على معنى (فَعَلَ) مرّات عدّة، وقيل: إنّه كان قوياً على الفعل.[٥٤] فعندما تقول: (هو صَبُورٌ) كان المعنى كأنَّه مادة تستنفذ في الصبر وتفنى فيه، كالوقود الذي يستهلك في الاتقاد، فالصبور كأنّه معدة للصبر يستهلك منه.[٥٥] كقوله تعالى: ﴿ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾،[٥٦] فاللفظ (شكُور) تعني أنّها كلّها شكر، والشُّكُور (المتوفر على أداء الشكر الباذل وسعه فيه قد شغل به قلبه ولسانه وجوارحه اعتقاداً واعترافاً وكدحاً وأكثر أوقاته)،[٥٧] وكذلك لفظة (غفُور) فكلّها مغفرة ورحمة. وقوله تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ ﴾،[٥٨] فــ(ذَلُول) على وزن (فَعُول)، وجاء في الكشّاف في تفسير هذه الآية أنّ الله تعالى يقصد به: (المشي في مناكبها مثلٌ لفرط التذليل ومجاوزته الغاية).[٥٩]

الفرق بين (فَعُول) و (فاعل) جليّ، فــ(فاعل) صيغة لاسم الفاعل، وليس للمبالغة بعكس صيغ المبالغة، فعندما تقول: (هو قاتلٌ) يعني إنّه قاتلٌ، فربما هو قتل شخصاً واحداً أو أنه منهم، ولكن عند قولنا: (هو قَتُولٌ) معناه أنّه كثيرُ القتلِ، فهي أقوى وأشدّ بحيث يدلّ على أنّه أخذ القتل حِرفة أو مهنة من كثرة تكرار الفعل. ذكر سيبويه على هذا الخصوص (واجروا اسم الفاعل إذا أرادوا به (فاعل) من إيقاع الفعل، إلا أنّه يريد أن يُحدّث عن المبالغة فما هو الأصل الذي يليه أكثر هذا المعنى : فَعُول).[٦٠] علماً بأنّ (فَعُول) تعمل عمل اسم الفاعل وهو الذي يشتمل على واو المدّ التي عدّت رمزاً للمركز المرموق في الإسناد أي الفاعلية،[٦١] كقوله تعالى: ﴿ ٱعۡمَلُوٓاْ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكۡرٗاۚ وَقَلِيلٞ مِّنۡ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ ﴾،[٦٢] ف(شُكْرًا) الأولى أتت على وزن (فُعْل)؛ لأنّها ليست فيها مبالغة وإنّ (آل داود) كلّهم

يشكرون، بينما (الشُّكُور) في الآية ذاتها يقصد به عبادَه المخلصين الذين يفردون طاعة الله وشكره، وكأنّ كلّ واحد منهم مادة معدّة للشكر.[٦٣] لذا إذا كان الرجل قويّاً على الفعل قيل: (فَعُول). والغرض من المبالغة أمران: هما بيان الدرجة من الكثرة والقلة، وثانيهما: بيان الدرجة من القوة والضعف.[٦٤]

قال تعالى: ﴿ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾،[٦٥] فالرؤوف صفة لله، ومنها ما هو صفة للرسول، كقوله تعالى: ﴿ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾،[٦٦] ومنها ما جاء صفة للمؤمنين وعلى صيغة (فَعُول) أيضاً كما قال جلّ وعلا: ﴿ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾،[٦٧] فالشكور صفة للذين يشكرون نعماء آلهه كثيراً، فهو إذا سمع بما أنزل الله من البلاء على الأُمم، أو أفاض عليهم من النعم، تنبّه على ما يجب عليه من الصبر والشكر واعتبر. فهذه الصيغة تزيد معنى زائداً في الصفة.[٦٨]

وفي آية أُخرى: ﴿ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ۝٢ غَافِرِ ٱلذَّنۢبِ وَقَابِلِ ٱلتَّوْبِ شَدِيدِ ٱلْعِقَابِ ذِى ٱلطَّوْلِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ إِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾،[٦٩] ذكر الزمخشري أنّ غافر الذنب، وقابل التوب معرفتان، لأنه لم يرد بهما حدوث فعلين، فإنّه يغفر الذنب، ويقبل التوبة الآن أو غداً حتى يكونا في تقدير الانفصال، وإنّما أُريد ثبوت ذلك ودورانه،[٧٠] فالشديد على وزن (فَعيل)، وهي صيغة قويّة؛ لأنّ أصلها (فَعُل) بالضمة.

وصيغة (فُعُول) وردت في القرآن الكريم كقوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴾،[٧١] فالله تعالى استخدم مصدر (صُدُور) فمعناه ليس المنع وإنما الإعراض، فدلالته أقوى. علماً بأنّ مصدر اسم الفاعل أيضاً له الصيغة نفسها، مثل: (شاهِق ــ شُهُوق) و (ساجِد – سُجُود). وللإشارة على قوة الضمة فإنّنا حينما نقول: (بابٌ فُتُحٌ)، أي واسع ضخم مفتح،[٧٢] يفيد مبالغة اسم المفعول. وجاء في لسان العرب (بابٌ فُتُحٌ) أي واسع مفتَّح).[٧٣] قال تعالى: ﴿ فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ ٱلدَّاعِ إِلَىٰ شَىْءٍ نُّكُرٍ ﴾،[٧٤] فـ(نُكُر) أي منكر شديد النكارة، وكما جاء

في الكشّاف: (شيءٌ نُكُر : منكر فظيع، تنكره النفوس؛ لأنّها لم تعهد بمثله، وهو هول يوم القيامة).[٧٥] وهنا تظهر لنا مرةً أخرى قوة الضمّة.

وصيغة (فُعْلة) بالضمّ، كاللُّعنة الذي يلعن كثيراً، وقد جاء في لسان العرب أن اللعنة تعني (الذي لا يزال يُلعِنُ لشرارته).[٧٦]

و(فُعَل) هو من الصيغ الواردة في القرآن الكريم أيضاً، كقوله تعالى: ﴿ لَهُم مِّن فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِّنَ ٱلنَّارِ وَمِن تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَٰلِكَ يُخَوِّفُ ٱللَّهُ بِهِۦ عِبَادَهُۥ يَٰعِبَادِ فَٱتَّقُونِ ﴾،[٧٧] فالله عزّ وجلّ استخدم لفظة (ظُلُل) بمعنى العذاب الذي يتوعد الله به عباده؛ لكي لا يتعرضوا لما يوجب سخط الله تعالى،[٧٨] فمن شدّة غضبه وسخطه استعمل هذه اللفظة على وزن (فُعَل) بضم الفاء، وذلك لأنّ المقام اقتضى ذلك.

وأخيراً وليس آخراً إن أي تغير في الحركات وبالأخصّ بالضم يؤدي إلى تغير في المعنى، وهذا ما توارد في القرآن الكريم كثيراً، فكلمتا (الضَّـرّ، الضُّـرّ) استعملتا في القرآن الكريم في موضعين مختلفين. الضَّرّ بالفتح فهو الضّرر في كلِّ شيء، كما قال تعالى في كتابه الكريم: ﴿ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ﴾.[٧٩] فالضَّرّ في هذه الآية عام مقابل النفع، ولكن (الضُّرّ) بالضمّ يعني الضرر في النفس من مرض وهزال.[٨٠] قال تعالى: ﴿ وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّي مَسَّنِيَ ٱلضُّرُّ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴾،[٨١] وقوله: ﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ ﴾.[٨٢] بمعنى أنّ الإنسان إذا نسي الضّرّ الذي كان يدعو الله إلى كشفه، وقيل نسي ربَّهُ الذي كان يتضرع إليه ويبتهل به، وقُرِئ لِيُضلَّ بالضّمّ، وذلك نتيجة جعله لله أنداداً.[٨٣]

المستوى التركيبي والدّلالي:

عُنِيَ القدماء بالمستوى التركيبي والدلالي عناية بالغة، و لم تكن جهود المحدثين أقلّ شأناً ممن سبقوهم. فدلالة الأصوات تقع في النبرة والنغمة والإيقاع الموسيقي، ومن بين تلك الدلالات دلالة الضّمّة التي تعني الإسناد أو العمدة، ودلالة الفتحة تعني الفضلة، أو ما يسمَّى حديثاً (بالتخصص)، ودلالة الكسرة تعني الإضافة في الجملة العربية، أما دلالة

الصوامت فتختلف من حيث اختلاف صفاهما من حيث الانطباق والعلة والانفتاح وهكذا.

فالضّمّة تتصفُ بالإسناد، ويكاد النحاة يتفقون في تعريفهم للإسناد إنّه تعليق خبر بمخبر عنه، أو طلب بمطلوب منه. وأنّه سواء في ذلك الإسناد المعنوي والإسناد اللفظي.[٨٤] فالإسناد يعني إضافة الشيء إلى شيء آخر. وذهب سيبويه إلى أن الجملة لابدَّ فيها من مسند ومسند إليه. وقد عرّفهما بأنّهما: (ما لا يغنى واحد منهما عن الآخر، ولا يجدّ المتكلم منه بُدّاً)؛[٨٥] لأن السامع يحتاج إلى كلّ من المسند والمسند إليه لإفادة المعنى. فالجملة لا تكون إلا بهما، وإذا وُجدَ أحدهما دون الآخر وجب تقدير الثاني وكأنّه موجودٌ.[٨٦]

فالضّمّة صوت ثابت وليس متحركاً؛ لأنّ دلالتها هي المضي، والمضي أمرٌ ثابت لا يحدث فيها تغيرٌ ولا تحويلٌ، فقولنا: (له علمٌ عِلمَ الفقهاءِ) تعني أنّ الرجل في حالة تعلم لا في حالة تفهّم، أي أنه لم يصل إلى درجة عالم فهو لا يزال يتعلم، ولكن لو قلنا: (له علمٌ عِلمُ الفقهاءِ) فالضّمة على (علم) قد غيّرت دلالتها، فإنّها تدلّ على أنّ العلم أصبح خُصلة عند ذلك الرجل وإنّه عالمٌ.[٨٧]

ففي صوت الرفع معنى لا يُوجد في النصب والجرّ. على سبيل المثال عندما تقول: (له حَسَبٌ حَسَبُ الصالحين) معناه أنّه استكمل الحسب وأصبح جزءاً منه، بينما إذا قلنا: (له حَسَبٌ حَسَبَ الصالحين) يعني أنّ الحسب لم يصبح حتى الآن جزءاً منه، بل إنّه يحاول الحصول عليه، وهذا هو الفرق الدلالي بين الضّمّة بوصفها حركة والفتحة.

يقول عزّ وجلّ في كتابه العزيز: ﴿ قُلِ ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَىٰٓۗ ءَآللَّهُ خَيۡرٌ أَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾،[٨٨] الله تعالى استعمل (سلامٌ) بالضمّ لماذا؟ لكي يدلّ على أنّه يسلم سلاماً قويّاً وكثيراً على عباده الصالحين. وفي آية أُخرى في سورة الصّافّات ذكر الله تعالى كلمة (سلامٌ) بالضمّ مراتٍ عدّة على أنبيائه والصالحين، كقوله جلَّ وعلا: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴾[٨٩] وقوله: ﴿ سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِلۡ يَاسِينَ ﴾،[٩٠] فبدلالة قوة الضمّة أظهر الله لهم شدّة رضاه، و أرسل أشدّ وأحرّ السلام عليهم، وكلّ ذلك عن طريق الضّمّة.

وردت كلمتان متشابهتان ولكنهما مختلفتان في الحركة إحداهما مضمومة، والأُخرى مفتوحة في القرآن الكريم كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿ وَلَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُنَا إِبْرَاهِيمَ بِالْبُشْرَى قَالُوا سَلَامًا قَالَ سَلَامٌ فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ ﴾،[91] فاللفظتان (سلامٌ وسلاماً) وردتا في هذه الآية الكريمة. فالملائكة عندما دخلوا إلى إبراهيم قالوا (سلاماً) بينما النبي إبراهيم أجابهم بترحيبة أقوى وأشدّ وهي (سلامٌ)، فسلامه كان أكثر ترحيباً من سلام الملائكة لاستعماله الضمة بدلاً من الفتحة. وقيل: انتصب سلاماً على اضمار الفعل، أي: (سلّمنا عليك سلاماً)، فسلاماً قطعه معمول للفعل المضمر المحكي ب(قالوا). و(سلامٌ) خبر مبتدأ محذوف، أي: (أمري أو أمركُم سلامٌ)، أو مبتدأ محذوف الخبر أي: (عليكم سلامٌ).[92] ونصب (سلاماً) يدلّ على التجدد، ورفع (سلامٌ) يدلّ على الثبوت والاستقرار والإصرار.[93] واستقبل إبراهيم عليه السّلامِ الملائكة بتحية أحسن منها.[94]

ومن النواحي الدلالية للضمّة هي أنّ الضّمّة تدلّ على الثبوت وحصول الأمر كقولنا: (حسبته شتمني فأثبَّ عليه)، وقولنا: (حسبته شتمني فأثبُّ عليه)، ففي الجملة الأولى (الوثوب) لم يقع بعد، فإذا وقع (الوثوب) فليس إلا الرفع لتعبر عنه، بينما في الثانية (الوثوب) وقع وأصبح شيئاً واقعياً.

ويقول الله تعالى: ﴿ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ ﴾،[95] فالله تعالى قال: (سلامٌ) بالضمة المشددة، ولم يقل: (سلاماً) بالفتح؛ لأنّ الله عزّ وجلّ يسلّم سلاماً كثيراً على عباده الصالحين وكأنّ هذا السلام نزل عليهم مسبقاً.

وجاء في كتابه العزيز: ﴿ إِذْ قَالُوا لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَى أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ﴾،[96] فإخوة يوسف استعملوا كلمة (أحبُّ) بالضمّ، فهذا الحب زمنه مضي، فقد أحبه من زمان؛ لذلك استعملوا للدلالة على وقوع الفعل على صيغة أفعل التفضيل، وهو مبني من المفعول شذوذاً.[97] والدليل على كثرة حبّ أبيهم ليوسف هو استعمال لام الابتداء التي فيها تأكيد وتحقيق لمضمون الجملة. وقوله تعالى: ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴾،[98] فـ(أخذُ) دلّ على المضي، وهو الباب في وضع

المستقبل موضع الماضي،[٩٩] ودلالته أقوى من (أخذَه)؛ لأنّ اللفظة الأولى تدلّ على وقوع الأخذ والثانية على عدمه لحدّ زمن الكلام وهي كالوعيد.

واختلاف آخر في بنية الكلمة بواسطة الضّمّة بين الكلمتين هما: (فَقِه و فَقُه)؛ لأنَّ الأولى بالكسر تعني فهم شيء معين؛ ولكن الثانية بالضّمّ تعني فقّهه فقهاً، أي علِمَه علماً، ومن خلال الضّمّة هذه الصفة المشبهة تنتقل إلى باب التعجب. ولإثبات أنّ (فَقِه) بمعنى الفهم قد أتى قوله تعالى على لسان قوم شعيب: ﴿ قَالُوا۟ يَـٰشُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِّمَّا تَقُولُ ﴾ ،[١٠٠] والذي يعني ما نفهم كلامك يا شعيب، وقوله تعالى على لسان موسى: ﴿ وَٱحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِى ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا۟ قَوْلِى ﴾ ،[١٠١] أي يفهموا قولي. هاتان الآيتان كانتا دليلاً قاطعاً على أن (فقِه) بالكسر تعني الفهم وليس الفقيه والفقهاء، ولا يوجد فيه التعجب؛ ولكن إذا قيل: (فَقُهَت) بدلاً من (فَقِهَت) تدلّ على الفهم.[١٠٢] والحالة نفسها مع كلمة (عَلُمَ) حيث بكسر اللام تصبح فعلاً متعدياً، وبوضع الضّمّة على اللام تجعل الفعل لازماً وتنقله إلى باب التعجب.

فكلُّ هذا يشمل التغييرات الصوتية، التي تخصُّ البنية الداخلة للكلمة،[١٠٣] ومن ذلك أيضاً لفظة (صُدْقَ) بضّمّ الصّاد وتستعمل للجمع، وللواحد تستعمل (صَدْقَ)، وقال سيبويه: (سَمعتُ من العرب من يقول : (قومٌ صُدْقُ اللقاء)، والواحد (صَدْقَ اللقاءِ)).[١٠٤]

الخاتمة:

نودّ في الختام أنْ نذكِّر بأنّ الضّمة استعملت في مواضع مختلفة في القرآن الكريم، ولكن لكل حادثٍ حديث ولكلّ استعمال سببٌ وجيه وراء ذلك، ولا ننسى أنّ الضمة الطويلة والقصيرة صوتان مجهوران، ولهما الوضوح التّام في السمع، وهما أكثر وقعاً وأثراً في نفوس السّامعين، وأكثر رسوخاً وثباتاً في أذهان المتلقين؛ وذلك لأنّ في إخراجهما طول لإطالة الشفتين وتدويرهما أثناء إخراجهما فتصلان إلى حيث يشاء الناطق.

هوامش البحث:

[١] عمر، أحمد مختار، **دراسة الصوت اللغوي**، (القاهرة: عالم الكتب، ١٩٨٠م)، ص١٧٩.

[٢] انظر: عبد القادر عبد الجليل، **علم اللسانيات الحديثة: نظم التحكم وقواعد البيانات**، (عمّان: دار صفاء، ٢٠٠٢م)، ص٤٥٨.

[٣] الفرق بين النوعين (المصوتات القصيرة والطويلة) قائم على الزمن، فقد أثبتت التجارب العلمية أنّ الزمن الذي تستغرقه الفتحة والكسرة والضمة هو نصف الزمن الذي تستغرقه الألف والياء والواو. وهناك فرق في الكميّة الصوتية والكيفية، لا في النّوعية. انظر: آل زيدي، كاصد ياسر، **فقه اللغة العربية**، (الموصل: منشورات جامعة الموصل، ١٩٨٧م)، ص٤٣٧. علماً بأنّ هناك من يرى العكس، فبعضهم يرون أن الصائت الطويل هو الأصل. انظر: المطلبي، غالب فاضل، **في الأصوات اللغوية: دراسة في أصوات المدّ العربية**، (بغداد: دار الحريّة، ١٩٨٤م)، ص١٠٠ وما بعدها.

[٤] انظر: السابق نفسه، ص٤٦٠.

[٥] وصف المدّات الثلاث (الألف والياء والواو) في علم العربية بأنهن سواكن. انظر: دك الباب، جعفر، **النظرية اللغوية العربية الحديثة**، ط١، (دمشق: مطبعة اتحاد الكتاب العربي، ١٩٩٧م)، ص٤٢. وقد وصفت المصوتات بأنها أصوات مدٍّ وأصوات لين؛ فإذا سبقت الألف والياء والواو بحركات تجانسها كانت أصوات مدٍّ، وإذا سبقت الياء والواو بحركات غيرِ متجانسة كانتا حرفي لينٍ، و لم تعد الألف منها؛ لأن ما قبلها يرد مفتوحاً دائماً.

[٦] خوشناو، نوزاد حسن، **المنهج الوصفي في كتاب سيبويه**، (بنغازي: منشورات قاز يونس، ١٩٨٩م)، ص٣٤.

[٧] انظر: العزاوي، نعمة رحيم، **مناهج البحث اللغوي بين التراث والمعاصرة**، (بغداد: مطبعة المجمع العلمي، ٢٠٠١م)، ص١٢٢.

[٨] انظر: الضامن، حاتم صالح، **علم اللغة**، (الموصل: مطبعة التعليم العالي، ١٩٨٩م)، ص١٥٣.

[٩] الوسي، نور الهدى، **علم الدلالة: دراسةً وتطبيقاً**، ط١، (بنغازي: جامعة قاز يونس، ١٩٩٥م)، ص٨٠.

[١٠] انظر: قدّور، أحمد محمد، **مبادئ اللسانيات**، (بيروت: دار الفكر المعاصر، ١٩٩٩م)، ص٤٣٧.

[١١] الطريفي، يوسف عطا، **معاني الحروف ومخارجها وأصواتها في اللغة العربية**، ط١، (عمّان: دار الأسراء، ٢٠٠٢م)، ص١٤٣.

[١٢] سورة يس، الآية ١-٢.

[١٣] السابق نفسه.

[١٤] سورة الكهف، الآية ٢٢.

[١٥] سورة الزمر، الآية ٧١.

[١٦] انظر: الزمخشري، أبو القاسم محمود جار الله، **الكشّاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل**، (بيروت: دار الفكر، د.ت)، ج٣، ص٤١١.

[١٧] سورة الزمر، الآية ٧٣.

[١٨] انظر: النعيمي، حسام سعيد، **ابن جنّي عالم العربية**، ط١، (بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٩٠م)، ص٩٣.

[١٩] انظر: ابن جنّي، أبو الفتح عثمان، **الخصائص**، تحقيق: محمد علي النّجار، ط٤، (بغداد: دار الشؤون الثقافية العامة، ١٩٩٠م)، ج١، ص٥٩.

[٢٠] انظر: السابق نفسه، ج١، ص٦٩-٧١.

[٢١] انظر: السابق نفسه.

[٢٢] نقلا عن: هلال، ماهر مهدي، **جرس الألفاظ ودلالاتها في البحث البلاغي والنقدي عند العرب**، ط٤، (بغداد: دار الحرّيّة، ١٩٨٠م)، ص١٦٠.

[٢٣] سورة القمر، الآية ٣٦.

[٢٤] سورة القمر ، الآية ٤٧.

[٢٥] سورة القمر ، الآية ٥٢.

[٢٦] انظر: السابق نفسه، ص١٧٦.

[٢٧] انظر: ابن جني، **الخصائص**، ج٣، ص٢٦٤.

[٢٨] سورة الإسراء، الآية ٢٤.

[٢٩] انظر: النعيمي، **ابن جنّي عالم العربية**، ص٩٣.

[٣٠] المرجع نفسه.

[٣١] سورة القمر، الآية ٣٦

[٣٢] انظر: الرافعي، مصطفى صادق، **إعجاز القرآن والبلاغة النبوية**، ط٩، (بيروت: دار الكتاب العربي، ١٩٧٣م)، ص٢٢٧-٢٢٨.

[٣٣] أنيس، إبراهيم، **الأصوات اللغوية**، ط٣، (القاهرة: دار النهضة العربية، ١٩٦١م)، ص١٠٨.

[٣٤] سورة النازعات، الآية ٤٦.

[٣٥] سورة القصص، الآية ٢٤.

[٣٦] سورة البقرة، الآية ١٩١.

[٣٧] سورة الحاقة، الآية ٣٠- ٣٢.

[٣٨] انظر: المطلبي، **في الأصوات اللغوية**، ص١٨٣.

[٣٩] سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر، **الكتاب**، تحقيق: عبد السلام هارون، ط٣، (بيروت: عالم الكتب، ١٩٨٣م)، ج٤، ص٣٦٥.

[٤٠] السابق نفسه، ج٣، ص٤٥٨.

[٤١] سورة الأعراف، الآية ١٤٢.

[٤٢] سورة آل عمران، الآية ٩.

[٤٣] إبراهيم، كمال، **عمدة الصرف**، (بغداد: مطبعة النجاح، د.ت)، ص٢٥٢.

[٤٤] سيبويه، **الكتاب**، ج٣، ص٤٥٨.

[٤٥] انظر: المنهج الصوتي للبنية العربية– رؤية جديدة في الصرف العربي، عبد الصبور شاهين، (بيروت: مؤسسة الرسالة، ١٩٨٠م، د.ط)، ص١٩٠.

[٤٦] سيبويه، **الكتاب**، ج٤، ص٣٨٣.

[٤٧] انظر: المهذب في علم التصريف، هاشم طه شلال وآخرون، (الموصل: مطبعة التعليم العالي، ١٩٨٩م، د.ط)، ص١٨٨.

[٤٨] انظر: سيبويه، **الكتاب**، ج٤، ص١١٤.

[٤٩] انظر: بركة، بسّام، **علم الأصوات العام**: **أصوات اللغة العربية**، (بيروت: مركز الإنماء القومي، ١٩٨٨م، د.ط)، ص٨٤.

[٥٠] الفرق بين المصوّت الطويل (الواو) والمصوّت القصير (الضمة) هو أن الفجوة بين اللسان والحنك في حال نطق نصف المصوّت هذا تكون أضيق منها في حالة النطق بالضمة، فيسمع للواو نوع من الحفيف. انظر: **علم الأصوات العام** ، ص١٣٨.

[٥١] المطلبي، **في الأصوات اللغوية**، ص٢٢٨.

[٥٢] انظر: سيبويه، **الكتاب**، ج٣، ص٥٩١.

[٥٣] انظر: السيّوطي، جلال الدين، **همع الهوامع في شرح جمع الجوامع**، تحقيق :عبد العال مكرم سالم، (الكويت: دار البحوث العلمية، ١٩٧٩م)، ج٢، ص٩٧.

[٥٤] انظر: السّامرائي، فاضل صالح، **معاني الأبنية في العربية**، ط١، (بغداد: منشورات جامعة بغداد، ١٩٨١م)، ص١١٤-١١٥.

[٥٥] انظر: السابق نفسه، ص١١٥.

[٥٦] سورة سبأ، الآية ١٣.

[٥٧] انظر: الزمخشري، **الكشّاف**، (طبعة دار الفكر)، ج٣، ص٢٨٣.

[٥٨] سورة الملك، الآية ١٥.

[٥٩] الزمخشري، **الكشّاف**، (طبعة دار المعرفة)، ج٣، ص٢٥٤.

[٦٠] سيبويه، **الكتاب**، ج١، ص١١٠.

[٦١] انظر: البناء، عبد الستار صالح أحمد، **صيغ المبالغة في التعبير القرآني**: **دراسة لغوية وصفية تحليلية**، رسالة ماجستير مقدّمة إلى كلية التربية، قسم اللغة العربية، جامعة صلاح الدين، ١٩٩٩م، ص٩٤.

[٦٢] سورة سبأ، الآية ١٣.

[٦٣] انظر: السّامرائي، فاضل صالح، **معاني الأبنية**، ص١١٥.

[٦٤] انظر: البناء، **صيغ المبالغة في التعبير القرآني** ، ص٩٥.

[٦٥] سورة النور، الآية ٢٠.

[٦٦] سورة التوبة، الآية ١٢٨.

[٦٧] سورة إبراهيم، الآية ٥.

[٦٨] انظر: المبرّد، أبو العباس محمد بن يزيد، **المقتضب**، تحقيق: محمد عبد الخالق عضيمة، (بيروت: عالم الكتب، د.ت)، ج٣، ص١٦٢- ١٦٥.

[٦٩] سورة غافر، الآية ٢-٣.

[٧٠] انظر: الزمخشري، **الكشّاف**، ج٤، ص١٤٨-١٤٩.

[٧١] سورة النساء، الآية ٦١.

[٧٢] انظر: **معاني الأبنية**، ص٦٨.

[٧٣] ابن منظور، أبو الفضل جمال الدّين، **لسان العرب**، (بيروت: دار صادر، د.ت)، (فتح) : ج٣، ص٣٧٠.

[٧٤] سورة القمر، الآية ٦.

[٧٥] الزمخشري، **الكشّاف**، ج٣، ص١٨٢.

[٧٦] ابن منظور، **لسان العرب**، (لعن) ،ج٧، ص١٤٥.

[٧٧] سورة الزمر، الآية ١٦.

[٧٨] انظر: الزمخشري، **الكشّاف**، (طبعة دار الفكر)، ج٣، ص٣٩٢.

[٧٩] سورة الرّعد، الآية ١٦.

[٨٠] انظر: الزمخشري، **الكشّاف**، (طبعة دار االمعرفة)، ج٣، ص١٨.

[٨١] سورة الأنبياء، الآية ٨٣.

[٨٢] سورة الزمر، الآية ٨.

[٨٣] انظر: االزمخشري، **لكشّاف**، (طبعة دار المعرفة)، ج٣، ص٣٤٠.

[٨٤] انظر: حسّان، تمام، **اللغة العربية: معناها ومبناها**، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٣م)، ص٣٨.

[٨٥] سيبويه، **الكتاب**، ج١، ص٢٣.

[٨٦] انظر: حماسة، محمد حماسة عبد اللطيف، **العلامة الإعرابية في الجملة بين القديم والحديث**، (الكويت: مطبوعات الجامعة، ١٩٨٤م)، ص٣١.

[٨٧] انظر: سيبويه، **الكتاب**، ج٢، ص٢٩.

[٨٨] سورة النمل، الآية ٥٩.

[٨٩] سورة الصافات، الآية ١٢٠.

[٩٠] سورة الصافات، الآية ١٣٠.

[٩١] سورة هود، الآية ٦٩.

[٩٢] انظر: أبو حيّان الأندلسي، محمد بن يوسف، **تفسير البحر المحيط**، دراسة وتحقيق: عادل أحمد وآخرون، ط١، (بيروت: دار الكتب العلمية، ٢٠٠١م)، ج٥، ص٢٤١.

[٩٣] انظر: السابق نفسه؛ والشعراوي، محمد متولي، **تفسير الشعراوي**، أخبار اليوم، ج١١، ص٦٥٤٩.

[٩٤] انظر: **تفسير الشعراوي**، ج ١١، ص٦٥٤٩.

[٩٥] سورة النمل، الآية ٥٩.

[٩٦] سورة يوسف، الآية ٨.

[٩٧] انظر: أبو حيّان الأندلسي، **تفسير البحر المحيط**، ج٥، ص٢٨٣.

[٩٨] سورة هود، الآية ١٠٢.

[٩٩] انظر: السابق نفسه، ج٥، ص٢٦١.

[١٠٠] سورة هود، الآية ٩١.

[١٠١] سورة طه، الآية ٢٧-٢٨.

[١٠٢] انظر: اين منظور، **لسان العرب**، (فقه)، ج٧، ص١٤٥.

[١٠٣] ثبت الفرق بين الضمة والتنوين بالضمة أيضاً، فقولنا: (هذا قاتلٌ عبدَ اللهِ) وجملة: (هذا قاتلُ عبدِ اللهِ)، ففي الأولى (قاتل) اسم فاعل يدل على الاستقبال، وذلك لأنه منون، بينما في الثانية يدلّ على المضي، لأنّه غير منوّن. فاللفظ الأوّل يعني أنّه سيقتله وفي الثاني يعني أنه قد قتله وانتهى . والحالة نفسها لـــ (كاتبٌ الرِّسالة) و(كاتبُ الرّسالة). الأولى تدلّ على الاستقبال، والثانية تدلّ على حدوثه كقوله تعالى: ﴿فَاطِرُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾[الشورى: ١١]؛ وذلك لأنّه فطر السماوات والأرض منذ الأزل.

[١٠٤] سيبويه، **الكتاب**، ج٣، ص١٢٨.